الافتتاحية

اتصل بي الأستاذ الأديب والشاعر محمد الدبيسي، نائب رئيس نادي المدينة المنورة الأدبي الثقافي، وقال لي: إنني أدعوك لحضور ملتقى العقيق الثقافي في دورته الثانية، وموضوع هذا الملتقى عن «الثقافة البصرية». قلت له: «وما الثقافة البصرية؟» قال: «تكّرم بالحضور، وستسمع ما يعجبك». قلت: «حبًا وكرامة، سأحضر إن شاء الله».

بدأ الملتقى أعماله صباح يوم الثلاثاء الثامن من شهر جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٨م. وكنت مستمعًا فقط لأستوعب ما يلقى عن: التشكيل البصري في القصيدة الحديثة، وفي الاستدعاء التاريخي في الشعر العربي المعاصر، وسموطيقيا الفن التشكيلي في النص الشعري الحديث، وجماليات الإعلان: الظل بوصفه عنصرًا مهيمنًا، والفن التشكيلي بين الخصوصية والعاطفة. وهذه العناوين غيض من فيض مما استمتعت به، وأنا مندهش لسماع هذه الدراسات التي لم أواكبها، على الرغم من أن تخصصي الأول هو الأدب العربي قبل أن أتحول إلى الدراسات الأثرية.

ولعل مسك الختام كان عن: فن الخط العربي: أنواعه وجمالياته، والمتحدث هو الخطاط الشهير شيخ الخطاطين: عثمان طه. وقد تحدث عن رحلته مع الخطوط، وعلى من درس منهجه في الكتابة، وكيف استطاع أن ينهي كل صفحة في المصحف بآية ويبدأها بآية. وقص علينا بعض المواقف التي حدثت له.

على أي حال، كانت المحاضرات ممتعة وكان أكثر ما أمتعني هو أن المتحدثين كلهم من الشباب، الذين ثقفوا المنهج الحداثي الجديد واستطاعوا أن يطوعوه لخدمة الأدب العربي الحديث. وفي نهاية الملتقى طلبت الكلمة، فكان مما قلته: إنني تعلمت الشيء الكثير في مجال الشعر والمسرح والسينما والرواية والفنون التشكيلية، ولكنني كنت أتمنى لو أن أحدكم تناول «فن الكاريكاتير»، وهو أحد الفنون التعبيرية ذات الدور المؤثر في إيصال الأفكار الناقدة في سبيل إصلاح المجتمع. كما أنني لفت نظر الباحثين إلى الخطوط والرسوم واللوحات الفنية، التي تمتلئ بها سفوح الجبال في الجزيرة العربية، وفي المملكة العربية السعودية على وجه أخص؛ فإنها ستفتح آفاقًا جديدة للباحثين في هذا المضمار.

لقد كان الملتقى دافعًا لي لكي ألتفت إلى أشياء لم أكن لألتفت إليها قبلاً. أشكر المتحدثين والمتحدثات في الملتقى والشكر للنادي الأدبي والثقافي في المدينة المنورة على دعوته لي، وعلى حسن اختياره الموفق للموضوعات التي يثيرها.

* * *

بدعوة كريمة من هيئة تطوير حائل، التي يرأسها صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبدالمحسن بن عبدالعزيز آل سعود، قمنا نحن ومجموعة من المختصين في مجال الآثار مكونة مني ومن الدكتور عبدالله حسن مصري، والأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، والأستاذ الدكتور أحمد الزيلعي، والدكتور علي المغنم، والدكتور ضيف الله الطلحي، والأستاذ جهز الشمري، بجولة للاطلاع على النشاط الأثري في منطقة حائل، وعلى الأخص ما يقوم به الدكتور فهد الحواس وزملاؤه من السعوديين، من تنقيبات في موقع فيد الأثري.

لقد يسرت لنا الهيئة السفر إلى فيد، التي تبعد نحو مائة وثلاثين كيلاً جنوب شرق مدينة حائل صباح يوم الاثنين ٢٥جمادى الثانية ١٤٢٩هـ، الموافق ٣٠ يونية ٢٠٠٨م. وهي موقع له دوره وسمعته على طرق التجارة قبل الإسلام، وطريق الحج بين العراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة في العصر الإسلامي. ولذا، فإنني عندما رأيت الموقع قبل أكثر من ثلاثين عاماً، أدركت أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن السعيد من يقوم بالتنقيب فيه. وعندما أراد الدكتور سعد الراشد أن ينقب في موقع إسلامي بحكم تخصصه في الآثار الإسلامية، اقترحت عليه التنقيب في فيد؛ ولكنه آثر أن ينقب في الربذة، ولعل ارتباط الربذة باسم الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه - شجعه على التنقيب فيها؛ ولكنني لم أنس فيد ووجدتها فرصة عندما اشتركت مع لجنة لإجراء مقابلة مع الابن فهد الحواس عندما تقدم للتسجيل لدرجة الدكتوراة أن اقترحت عليه أن ينقب في فيد، وخاصة أنه كتب رسالة الماجستير عن العمارة التقليدية في مدينة حائل؛ فتصبح الكتابة عن فيد والتنقيب فيها، تأصيلاً للعمارة التقليدية في المنطقة. فقبل وقتها اقتراحي، ومرت الأيام وإذا بي أسمع أن فهداً بدأ التنقيب في فيد، فكنت في شوق كبير لرؤية ما قام به. وما أن جاءتني الدعوة حتى استجبت لها فرحًا مرحّباً، وخاصة أنني سأكون مع نخبة مختارة بعناية جمعتنا المحبة والعمل المشترك المثمر سنين عدة.

وصلنا إلى الموقع وإذا بنا نجد عملاً لم أكن أتوقعه؛ إذ لم ينقب فهد وزملاؤه في الموقع إلا ثلاثة مواسم، وما أنجز لا تقوم به البعثات الأجنبية إلا في مواسم عدة. وقد فوجئنا بالأسوار وقد برزت: الخارجية منها وبعض الداخلية، وظهر كثير من معالم الأسواق والحوانيت والأفران. كما ظهرت لأول مرة بركة ثمانية الشكل خاصة بالقصر، إلى جانب مسجد وقفنا عنده طويلاً؛ فمن المحراب والاتجاه شرقًا نجد الأعمدة مربعة، مع ظهور السور الشرقي، وغربًا نجد الأعمدة دائرية؛ ولم تظهر بقية الأعمدة الغربية، ذلك لأن الأرض المحاذية مملوكة مما قد يتاح التنقيب فيها مستقبلاً، إلى جانب أن الفراغ في رواق القبلة لا يكاد يسمح لأكثر من صف واحد، مع أن المسجد حسب الأبعاد المقدرة يُعد من أكبر المساجد، بل وأكبر مساحة من المسجدين الذين وجدا في الربذة. فلعل هذا المسجد قد مر بمراحل مختلفة سابقة.

إن أهم ما رأيناه هو الترميم لكل ما نُقب في الوقت نفسه، مما برز فيه مجهود الدكتور عبدالناصر الزهراني، خبير الترميم في كلية السياحة والآثار بجامعة الملك سعود بالرياض؛ إذ لا يستطيع الإنسان

إلا أن يشعر أن الأسوار طبيعية، وكأنها غير مرممة.

وفي المساء شرفنا بلقاء صاحب السمو الملكي أمير المنطقة، ونقلنا له ما جاشت به مشاعرنا عما رأيناه وما سمعناه من شرح مقنع. فسُر الأمير لذلك أمام حشد كبير من أعيان حائل ومدير جامعتها الأستاذ الدكتور أحمد السيف؛ ثم شرفنا بتناول طعام العشاء على مائدة سموه، وبعدها عدنا للاجتماع مع سمو رئيس وأعضاء الهيئة، في اجتماع رأسه سموه في غرفة اجتماع خاصة. وناقشنا ضرورة دعم هذا العمل العلمي المتميز. فهنيئًا لمنطقة حائل بأميرها الفذ، وهنيئًا لفيد بأبنائها المنقبين عن تراثنا الإسلامي المجيد.

* * *

تعد الحجر، أو ما تعرف (بمدائن صالح)، واسطة العقد لتراثنا التاريخي الذي يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، حسبما برهن عليه آخر كشف أثري فوق جبل الخريمات؛ إذ وجدت مقابر ركامية كتلك التي وجدت في تيماء (رجوم صعصع)، والتي تشبه مقابر هيلي في الإمارات العربية المتحدة. وإذا كنا قد احتفلنا في السنة الماضية بالبتراء، كإحدى عجائب الدنيا السبعة في القرن الحادي والعشرين، فإن الحجر لا تقل أهمية عن البتراء، باعتبار النصوص الثلاثين التي لم يوجد مثلها في البتراء ولا فيما حولها من أرباض البتراء، عاصمة الأنباط.

لقد سجل الأنباط تاريخهم فنيًا وتوثيقًا كتابيًا في الحجر؛ إذ أؤتمنت على ذلك، لأنها بعيدة عن أيدي الغزاة. فسجلوا فيها أحداثهم رغم أن الحجر ربما كانت خط المواجهة الجنوبي للدولة النبطية ضد من يغزونها من الجنوب، أو يلتف عليها من البطالمة أو الرومان، عبر موانئ البحر الأحمر.

إن الحجر (مدائن صالح) تعد مفخرة للتراث القديم في المملكة العربية السعودية، وسوف تصبح معلمًا عالميًا يأتي إليها الزوار من كل حدب وصوب، ولذا، فإن الدولة – حفظها الله – ممثلة في الهيئة العامة للسياحة والآثار، ومن يسوس أمرها، صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان، سوف لن تبخل على الحجر بما يهيئ لمن يقصدها كل الوسائل الضرورية التي يحتاجها الزائر. إن قبول اليونسكو للحجر (مدائن صالح) يُعد يوم عرس للآثاريين والمؤرخين والمعماريين ومحبي الحضارة الإنسانية؛ لأن العناصر الحضارية التي تمثلها تفرض على المجتمع الدولي قبولها ضمن التراث الحضاري العالمي. وأول الغيث قطرة ثم ينهمر.

رئيس هيئة التحرير